

## ٢٠- صَيْدًا وَصُورًا

توأمان اعدهما الدهر للحدثان، فوضعهما على شاطئ البحر المتوسط،  
وأحاطهما بالارض الخصبة والماء الغزير، ومتعهما بالمنعة تحميها قلعة هنا وقلعة  
هناك، ويدر عليهما الخير بحر ما بخل على نشيط ولا تنكر لصاحب عزم.  
مر بصيدا ابن الساعاتي الشاعر فرأى مروجاً كثيرة نباتها النرجس، وسمع أن  
اسيراً هرب فرُدّ حالاً، فقال في ذلك:

لله صيـداء من بلاد      لم تبق عندي بلى دفـينا  
نرجسها حلـية الفيافي      قد طبق السهل والحزونا  
وكيف ينجو بها هزيم      واراضها تنبت العيونا  
وصور، على ما وصفها ياقوت، «مشرفة على بحر الشام داخلة في البحر مثل  
الكف على الساعد يحيط بها البحر من جميع جوانبها الا الرابع الذي منه شروع  
بابها»<sup>(١)</sup>.

من هاتين المدينتين ابهر أول مركب يحمل أول حرف الى الجزر النائية، ومن  
صور خرجت اليسار التي أنشأت أكبر مجلى من مجالي الحضارة الفينيقية خارج  
لبنان. والى هاتين المدينتين كانت تأتي سفن الجنوب والشمال حاملة المتجر للبيع،  
والنقود للشراء.

وها نحن نقرأ في حزقيال عن صور قوله «يا صور أنت قلت أنا كاملة الجمال ..  
تخومك في قلب البحور. بناؤوك تمّموا جمالك، عملوا كل ألواحك من سرو سنير.  
أخذوا أرزاً من لبنان ليصنعوه لك سوارى. صنعوا من بلوط باشان مجاذيفك. صنعوا  
مقاعدك من عاج مطعم. كتّان مطرّز من مصر هو شرعك ليكون لك راية. أهل  
صيدون وارواد كانوا ملاحيك. حكماؤك يا صور الذين كانوا فيك هم رباينك. شيوخ  
جبيل وحكماؤها كانوا فيك ... جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك ليتاجروا  
بتجارتك ... تاجروا في أسواقك بالبهرمان والأرجوان والمطرز والبوص والمرجان  
والياقوت ... بحنطة منيت وحلاوي وعسل وزيت وبلسان. دمشق تاجرتك بكثرة  
صنائعك ... أنواع الطيب ويكل حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك»<sup>(٢)</sup>.

وتقلبت الايام، وجاء الاقوام فحاربوا أهل صور وصيدا، ودافع هؤلاء عن

المدينتين، وما أكثر ما تمكن المغير من الانتصار والغلبة والفتح، ولكنه لم يتمكن قط من قهر الصوريين أو الصيدانيين، وان كان تغلب على صور وصيدا. ومع أن أموراً كثيراً تعاقبت على المدينتين فأخرتهما، فقد كانتا تقومان المرة بعد المرة.

قال المقدسي، وهو من أهل القرن الرابع (العاشر)، في كتابه احسن التقاسيم: «وصور مدينة حصينة على البحر، بل فيه. يدخل إليها من باب واحد على جسر واحد. قد احاط البحر بها ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا أرض تدخل فيه المراكب كل ليلة ثم تجر السلسلة التي ذكرها محمد بن الحسن في كتاب الاكراه. ولهم ماء يدخل في قناة معلقة. وهي مدينة جلييلة نفيسة بها صنائع ولهم خصائص. وبين عكا وصور شبه خليج ولذلك يقال عكا حذاء صور، الا انك تدور»<sup>(٣)</sup>.

وفي القرن الخامس (الحادي عشر) مر ناصري خسرو الرحالة الفارسي المشهور بصيدا وصور. فقال عن الأولى: «ثم توجهنا الى مدينة صيدا، وهي على شاطئ البحر أيضاً، يزرع بها قصب السكر بوفرة. وبها قلعة حجرية محكمة، ولها ثلاث بوابات. وفيها مسجد جمعة جميل يبعث في النفس هيبه تامة، وقد فرش كله بالحصير المنقوش، وفي صيدا سوق جميل نظيف، وقد ظننت، حين رأيته، أنه زين خاصة لمقدم السلطان أو لأن بشرى سعيدة أذيعت، فلما سألت قيل لي هكذا عادة هذه المدينة دائماً، وفيها حدائق وأشجار منسقة حتى لنقول إن سلطاناً هاوياً غرسها وفي كل من هذه الحدائق كشك، وأغلب شجرها مثمر»<sup>(٤)</sup>.

ثم انتقل إلى صور فوصفها بقوله: «وبعد مسيرة خمسة فراسخ على شاطئ البحر بلغنا مدينة صور، وهي ساحلية أيضاً. وقد بنيت على صخرة امتدت في الماء، بحيث ان الجزء الواقع على اليابس من قلعتها لا يزيد على مائة ذراع، والباقي ماء البحر. والقلعة مبنية بالحجر المنحوت الذي سدت فجواته بالقار حتى لا يدخل الماء من خلله. وقد قدرت المدينة بألف ذراع مربع. وأربطتها من خمس أو ست طبقات، وكلها متلاصقة، وفي كثير منها نافورات، وأسواقها جميلة كثيرة الخيرات. وتعرف مدينة صور، بين مدن ساحل الشام، بالثراء، ومعظم سكانها شيعة. والقاضي هناك رجل سني اسمه ابن أبي عقيل، وهو رجل طيب ثري. وقد بني على باب المدينة مشهد به كثير من السجاجيد والحصير والقناديل والثريات المذهبة والمفضضة. وصور مشيدة على مرتفع، وتأتيها المياه من الجبل. وقد شيد على بابها، عقود حجرية، يمر الماء من فوقها إلى المدينة، وفي الجبل واد مقابل لها، اذا سار السائر فيه ثمانية عشر فرسخاً ناحية المشرق بلغ دمشق»<sup>(٥)</sup>.

وقد تحدث بعض الكتاب الفرنج الذين أقاموا في المنطقة أيام الصليبيين عن صور وصيدا وجهاتهما فكان جماع ما قالوه «القطن ينمو في أنجم يبلغ طولها إلى ركلة الرجل ... وينمو قصب السكر ... وداخله مليء بمادة مسامية رطبة. يجمع القصب

ويقطع صغيراً ويعصر ويفلى العصير الذي يخرج منه، ومتى صار لزجاً يوضع في سلال مصنوعة من العساليح، فيجف ويصبح صلباً. وهكذا يصنع السكر. ويتقطر منه قبل أن يجفّ سائل يسمى عسل السكر، وهو لذيذ ويستعمل في صنع الكعك. «ويزرع قصب السكر بطريق العُقْل. وموعد غرسه في فصل الربيع»<sup>(٦)</sup>.

على ان صور كان من حسن حظها ان مرَّ بها ابن جبير في القرن السادس (الثاني عشر) وكانت بعد بأيدي الصليبيين فوصفها بعبارة الأنيقة فقال: «مدينة يضرب بها المثل في الحصانة، لا تُلقي لطالبها بيد طاعة ولا استكانة. قد أعدها الافرنج مفرعاً لحادثة زمانهم وجعلوها مثابة لأمانهم. هي أنظف من عكّة سِكا وشوارع... وأجرى الى برّ غرباء المسلمين شمائل ومنازع، فخلأثهم اسجح، ومنازلهم اوسع وأفسح... واما حصانتها ومنعتها فاعجب ما يحدث به. وذلك انها راجعة إلى بايين احدهما في البرّ والآخر في البحر وهو يحيط بها الا من جهة واحدة فالذي في البر يُفضى اليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة كلّها في ستائر مشيدة محيطة بالبواب. واما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالحصّ. فالسفن تدخل تحت السور وترسى فيها وتعرض بين البرجين المذكورين سلسلة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب الا عند ازالتها. وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج الا على اعينهم. فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع. ولعكّة مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك، وانما ترسى خارجها. والمراكب الصغار تدخل اليها فالصوريّة اكمل وأجمل وأحفل»<sup>(٧)</sup>.

ولما كان ابن جبير دقيق الملاحظة كبير الاهتمام بمظاهر الحياة الاجتماعية، فقد ترك لنا وصفاً لعرس تم في صور أيام اقامته فيها قال: «ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدثّ بها زفاف عروس شاهدناه بصور في احد الأيام عند ميناؤها. وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساء، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهويّة، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمساكنها من يمين وشمال كأنهما من ذوي أرحامها، وفي أبهى زيّ وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهبّ سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم. وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفّت بشبكة ذهب منسوجة، وعلى لبتّها مثل ذلك منتظم، وهي رافلة في حليها وحلّها تمشي فتراً في فتر مشي الحمامة، او سير الغمامة... واماها جلة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهيّة تسحب أذيالها خلفهم، ووراءها اكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أنفس الملابس ويرفلن في أرفل الحلى. والآلات اللهويّة قد تقدّمتهم. والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في

طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلمها. واقاموا يومهم ذلك في وليمة فأدانا الاتفاق الى رؤية هذا المنظر الزخرفي»<sup>(٨)</sup>. في اواخر القرن السابع (الثالث عشر) خرج الصليبيون من ديار المشرق، وكانت المدن المختلفة قد أصابها شر كبير من الحروب المتواصلة، فلما جاء ابن بطوطة صور في القرن الرابع عشر قال عنها إنها «خراب وبخارجها قرية معمورة»<sup>(٩)</sup>. اما عن صيدا فقد قال ابن بطوطة: «ثم سافرت الى مدينة صيدا، وهي على ساحل البحر، حسنة كثيرة الفواكه، يحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر. نزلت عند قاضيها كمال الدين الأشموني المصري، وهو حسن الأخلاق كريم النفس»<sup>(١٠)</sup>.

ومع ان صور لم تقم من كبوتها بعد الذي أصابها، فإن صيدا أتيح لها ان تتمتع بأيام غر لما اتخذ منها الأمير فخر الدين الثاني مركزاً لتجارة لبنان. وأخبار هذه الفترة كثيرة تقتصر منها على مثل واحد يعود الى سنة ١٠٢٢ [١٦٢٢] رواه الأمير حيدر الشهابي قال: «قدمها [صيدا] ثمانية مراكب مغاربة من جهة تونس وكان راس في المينا مراكب فرنساوية وفلامنكية فطلبوا عشرة آلاف غرش فامتنعوا عن إعطائهم وقربوا مراكبهم لتحت قلعة البلدية فأنتت المغاربة على نية الحرب وضربوهم بالمدافع. فالشواطىء حمت نفسها واستمر إطلاق المدافع بينهم ذلك النهار بطوله وعند الغروب ذهبت المغاربة ورسن المراكب بعيدة عن الميناء. وهذا جرى بين المغاربة والفرنساويين. اما مراكب الفلامنك فلم يتعرضوا لها. فلما سمع الأمير فخر الدين ذلك الخبر رحل من صور الى صيدا ليلاً فوصلها عند طلوع الشمس وأرسل الى المغاربة قوارب تسألهم عن مرادهم فلما علموا بوصول الأمير والعسكر أقبلوا وأبعدوا في البحر وأقام الأمير في صيدا ثلاثة أيام»<sup>(١١)</sup>.

وممن زار صيدا وأعجب بها الشيخ عبد الغني النابلسي الذي نظم الأبيات التالية في تلك المدينة قال:

عندما جئت قاصداً أرض صيدا	صاد قلبي هوى الأحبة صيدا
فأزالت عنا من الهم قيـدا	بلدة طاب رونق البحر فيها
والهواء الذي انبرى ترديدا	أعجبتني لطافة الماء منها
يقذف الدر من حصاه نضيدا	ساحل مطلق الجوانب غض
كل شهم منهم يلوح فريدا	فيه صحب لنا هناك كرام
من أتاهم لا يعرف التنكيـدا	يحفظون الوداد بالصدق حتى
بالمعالي فلا يزال مشيدا	صانهم ربهم وخص حماهم
وسمعتنا طير الربى غريدا	أمد الدهر ما النسائم هبت

## الهوامش

- (١) ياقوت، ج ٣، ص ٤٣٣.
- (٢) حزقيال، اصحاح ٢٧، عدد ٣-٢٢.
- (٣) المقدسي، ص ١٦٣-١٦٤.
- (٤) خسرو، ناصري: سفرنامه، ص ١٤-١٥.
- (٥) نفس المكان، ص ١٥.
- (٦) رواد الشرق العربي، ص ١٦٥.
- (٧) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ليدن، بريل، ١٩٠٧، ص ٣٠٤-٣٠٥.
- (٨) نفس المكان، ص ٣٠٦-٣٠٥.
- (٩) ابن بطوطة، ج ١، ص ١٣٠.
- (١٠) نفس المكان، ج ١، ص ١٣١-١٣٢.
- (١١) الزين أحمد عارف: تاريخ صيدا، صيدا، مطبعة العرفان، ١٩١٣، ص ٦٥.

من الاعمال الكاملة للدكتور نقولا زيادة ، اصدار الدار الاهلية للنشر والتوزيع في بيروت ، الجزء الثالث عشر - مدن عربية